

٨- الشاؤم

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.
أَمَّا بَعْدُ.

فيا أيها الناس.

اتقوا رَبَّكُمْ وَعَلَّقُوا قُلُوبَكُمْ بِهِ، وادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا، رَغْبًا وَرَهْبًا لَعَلَّكُمْ تفلحون، فَإِنَّ أَصَلَ الدِّينِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ النَّبِيَّينَ إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(١).

أيها المؤمنون.

إِنَّ رَبَّكُمْ الَّذِي تَعْبُدُونَ ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٢).

أيها المؤمنون.

إِنَّ إِلَهُكُمْ الَّذِي تَرْغُبُونَ وَتَرْهَبُونَ هُوَ الَّذِي: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ

(١) سورة البينة (٥) .

(٢) سورة الحشر (٢٢-٢٣) .

أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ ﴿١﴾، ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٢﴾.

لا مانع لما أعطى، ولا مُعْطِي لما مَنَعَ، قَدَّرَ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وله في ذلك الْحِكْمَةُ الْبَالِغَةُ وَالْقُدْرَةُ الْنَافِذَةُ ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ ﴿٣﴾.

فكُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ ﴿٤﴾.

عِبَادَ اللَّهِ، إِذَا عَلِمَ الْمُؤْمِنُ ذَلِكَ صَدَقَ فِي تَوَكُّلِهِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فِي جَلْبِ كُلِّ خَيْرٍ وَدَفْعِ الضَّرِّ، وَعَلِمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ مِنْ أَقْدَارِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَكُنْ لِيَخْطِئَهُ وَيَتَعَدَّاهُ إِلَى غَيْرِهِ، وَمَا تَعَدَّاهُ وَأَخْطَأَهُ إِلَى غَيْرِهِ لَمْ يَكُنْ لِيَصِيبَهُ، وَبِهَذَا كُلِّهِ يَتَخَلَّصُ الْعَبْدُ مِنْ أَوْضَارِ الشَّرِّ، وَلَوْثَاتِ الْوُثْنِيَةِ.

أيها المؤمنون.

إِنْ مِنْ أَعْظَمِ فَوَائِدِ التَّوْحِيدِ الصَّادِقِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا السَّعَادَةُ وَالْأَمْنُ وَالْإِهْتِدَاءُ، الَّذِي يَجِدُهُ الْمُؤْمِنُ الْمُحَقِّقُ لِتَوْحِيدِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ

(١) سورة الحديد (٤).

(٢) سورة الحج (٧٠).

(٣) سورة الحديد (٢٢).

(٤) سورة القلم (٤٩-٥٠).

بِظُلْمٍ أُولَئِكَ هُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿١﴾.

أيها المؤمنون.

إن مما ابتلي به بعض الناس التشاؤم بالأيام أو الشهور، أو التشاؤم ببعض الأشخاص أو الحيوانات أو الأحداث، أو غير ذلك، من المسموعات أو المعلومات أو المزيّات، ولا شك أن التشاؤم بهذه الأشياء، واعتقاد أنها سبب للشرور من الشرك الذي يذهب الإيمان، وينكّد على المرء حياته، ويلحقه الضيق والكدر فيها، بلا سبب شرعي ولا مسوغ حقيقي.

أوهام وظنون وخيالات ووساوس، فالخير كله بيد الله تعالى، لا راد لما أعطى ولا معطي لما منع؛ ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التشاؤم والتطيّر، فهما من أعمال الجاهلية، ومن المحرمات الشرعية، ففي حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطيرة شرك، الطيرة شرك»^(٢). وقال الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر»^(٣)، فنفى النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يعتقده أهل الجاهلية من العدوى أن الشيء يعدي بنفسه، دون تقدير الله تعالى، ونفى ما كانوا يعتقدونه من التشاؤم بالطيور وبعض الشهور، كشهر صفر أو غير ذلك من الأمور.

(١) سورة الأنعام: ٨٢.

(٢) أخرجه أحمد (٣٦٧٩)؛ وأبو داود (٣٩١٠)؛ وابن ماجه (٣٥٣٨)؛ وصححه الألباني.

(٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

إن ما يجده المرء من كراهةٍ للشيء بسببِ التشاؤمِ والتطيرِ، إنما هو وهمٌ يجده في نفسه، فلا يجوزُ الالتفاتُ إليه، ففي صحيحِ مسلمٍ قال معاوية بن الحكم رضي الله عنه يسألُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ومِنَّا أناسٌ يتطيَّرون؟ فقال: «ذاك شيءٌ يجده أحدُكم في نفسه فلا يصدَّنكم»^(١)؛

أي: عَمَّا أَرَدْتُمْ وقصدْتُمْ من الأعمالِ، فالواجبُ على المؤمنِ إذا عَزَمَ على أمرٍ وأرادَه، ثم عَرَضَ له التشاؤمُ بسببِ مسموعٍ يسمعه، أو معلومٍ يُدرِّكه، أو مرئيٍّ يشاهده، ألا يرجعَ عَمَّا عَزَمَ عليه، بل يمضي متوكِّلاً على الله تعالى.

وقد روي عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم لما سُئِلَ عن الطَّيرة، فقال: «لا تَرُدُّ مسلماً، فإذا رأى أحدُكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسناتِ إلا أنت، ولا يدفع السيئاتِ إلا أنت، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك»^(٢).

وليعلمَ المؤمنُ أنه إذا استجابَ لهذه الطَّنُونِ الكاذبة، والأوهامِ الفاسدة، التي يلقيها الشيطانُ في قلبه بسببِ التشاؤمِ، فقد وَقَعَ في الشُّركِ، فليتبَّ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ، وليَمُضْ في عَمَلِهِ، وليقل: اللهم لا خيرَ إلا خيرُكَ، ولا طيرَ إلا طيرُكَ، ولا إلهَ غيرُكَ، فإن الطَّيرةَ لا تدُلُّ على الغيبِ، ولا تخبرُ عنه. فدُونَ الغيبِ أقفالٌ.

لَعَمْرُكَ ما تَدْرِي الطوارقُ بالحصي- ولا زاجراتُ الطيرِ ما اللهُ صانعُ^(٣)

(١) أخرجه مسلم (٥٣٧) من حديث أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٩١٩) .

(٣) البيت للبيد بن ربيعة في ديوانه (١٥٧/١)

﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾^(١).

﴿٢٥﴾

الخطبة الثانية

أما بعد.

فاتقوا الله عباد الله، وحقّقوا إيمانكم بصدق الاعتماد على الله، في جلب كل خير، ودفع كل ضرر، ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾^(١).

أما من ركن إلى الطيرة والتشاؤم في أموره، فإنه قد فتح على قلبه باباً عظيماً من الشرّ، تدخل منه الوسوس والأوهام، فيضعف قلبه ويخاف من كل شيء، ويتعلّق بالمخلوقين دون الله تعالى، فتتقلب حياته همّاً وغماً وحزناً ونكدًا؛ ولهذا نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الطيرة، وأمر من وقع في قلبه شيء من ذلك أن يجاهده غاية المجاهدة، قبل أن يتمكن فيه فتفسد عليه حياته.

أيها المؤمنون.

إن الشريعة حرصت غاية الحرص على دفع كل مؤذٍ ومنغصٍّ؛ ولذلك نهت عن أسبابها، وحثّت على كل ما هو سبب للفلاح والنجاح؛ ولذلك شرعت طرقها، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل». قيل: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»^(٢).

فالفأل لا حرج فيه، بل هو مما يُعجبُ النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا استبشر المؤمن بالكلمة الطيبة، وزاده ذلك نشاطاً على الخير، أو على ما هو فيه من

(١) سورة الطلاق (٣).

(٢) أخرجه البخاري (٥٧٧٦)، ومسلم (٢٢٣٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

عملٍ، لم يكنْ في ذلك حرجٌ عليه، وصفةُ ذلك أن يعزِمَ العبدُ على أمرٍ من أمورِهِ، ثم يسمعَ كلاماً يَسُرُّه، كأنْ يسمعَ: يا راشدُ أو سالمُ أو غانمُ، فيفرَحَ بذلك ويستبشِرَ، وتزدادَ رغبتهُ في ذلك الأمرِ، فليس في ذلك محذور.